الافتتاحية

اعتذار

حين أتتني الدعوةُ من مكتبة الإسكندرية لحضور مؤتمر «قضايا الإصلاح العربي: الرؤية والتنفيذ» (١٢ ـ ١٤ / ٣ / ٢٠٠٤) صَدّقتُ لوهلةٍ أنّني من أبرز المشقفين العرب أو الساعين إلى الإصلاح الداخلي. قلتُ: ها «هُمْ» أخيراً يعترفون بـ الآداب، على الأقلّ كمنبرٍ للإصلاح. ولكن اعتراني بعضُ الشك أيضًا؛ فالمؤتمر سيكون برعايةٍ رسمية ـ هذا أولاً. وثانيًا: لم تعجبني في «ورقة العمل الأساسية» التي أُرسلتْ إليّ بالفاكس الإشارةُ الإيجابيةُ إلى «خارطة الطريق» بوصفها الحلَّ العادلَ لقضية الشعب الفلسطيني. ولكنّني قلتُ: سأذهب وأناقش وأُغيِّر؛ فالمدعوّون مثقفون وسيَقْتنعون بالأدلّة. لذا، حَضَّرتُ نقداً متكاملاً لـ «الخارطة» واستقللتُ الطائرة.

مقعدي على الطائرة؟ درجة أولى؛ فأنا من الكبار، ومنبري يُطالب بالإصلاح منذ ٥٢ عامًا! والفندق في الإسكندرية؟ فندق «فلسطين» الذي بناه الرئيس جمال عبد الناصر. ثم إنّ الجميع، أنظمةً ومثقفين وشعوبًا، ضدّ «الإصلاح» الأميركي. عظيم. إذن، كلّ شيء في صالحي.

ناقَشْنا في الورشات. الجوّ ممتاز. هكذا تكون المؤتمرات أو لا تكون، قلتُ في نفسي. ثمّ جاءت الصيغة النهائية. طالبْنا بإضافة عددٍ من النقاط. فتمّ الأخذُ ببعضها، والحقُّ يقال. ولكنْ كان واضحًا لديّ، ولدى عدد من المشاركين، أنّ ثمّة إغفالاً متعمّداً لدور الاستعمار الأوروبي والأميركي في ما آلت إليه الأوضاعُ العربية. وكان أولَ مَنْ عبَّر عن احتجاجه على ذلك المثقفُ السعودي الوطني: د. عبد الله الغذامي. فقد طَلَب الغذامي الكلامَ، وطالبَ بإصدار بيانٍ صغير، إلى جانب الوثيقة النهائية، ينصّ على أنّ المشاركين يروْن أنّ على الاستعمارين الأوروبي والأميركي تحمُّلَ مسؤوليتهما التاريخية والأخلاقية والمادية عن مصائبنا. لكنّ رئيسَ الجلسة الختامية ورئيسَ مكتبة الإسكندرية، د. إسماعيل سراج الدين، رَفَضَ. وأصرّ على الرفض. وهكذا تبيّن أنّ ثمة خطًا أحمر يُمْنع تخطّيه في وثيقة الإصلاح، اسمُه: الولايات المتحدة الأميركية. وكانت الحجّة أنّ هذا مؤتمر للإصلاح... الداخلي!

اتفقنا، عبد اللّه ونبيل سليمان والعبدَ الفقير، على إصدار بيان على هامش وثيقة الإسكندرية «الإصلاحية،» وجَمَعنا ما تيسَّرَ من تواقيع عشيةَ عودة كلٍّ منّا إلى بلده (نصّ البيان ص ٦). كُنّا نشعر بالإهانة: فها نحنُ نُدعى لنَبْصم على مشاريع الأنظمة العربية للإصلاح، في مواجهة المشروع الأميركي للإصلاح. والإصلاحان كاذبان: الأنظمة (وعلى رأسها النظامُ المصري) لا تُريد الإصلاحَ الحقيقي (أو «السريع» كما تقول) لأنّه يُوقِع البلادَ في «خضّات هي في غنًى عنها،» وقد يأتي بالإسلاميين الإرهابيين إلى الحكم كما قال الرئيس مبارك. والأميركان لا يَفْهمون من الإصلاح إلاّ «تسييرَ [الاقتصاد الوطني] وفقًا لآليات السوق... بما يسهِّل اندماجَه في الاقتصاد العالمي» (وهو ما تبنّته الوثيقةُ الإسكندرانيةُ حرفيًا) و«خَفْضَ معدّلات التضخّم من خلال ثالوث برامج التثبيت والخصخصة والتحرير الاقتصادي» (أيضًا تبنّته الوثيقةُ)، و«تمكينَ الدول العربية من الانخراط الفعّال في منظمة التجارة العالمية» (وهذه العبارة انْطَلَتْ علينا لأنّنا مثقفون لا يهمّنا الاقتصادُ كثيراً!)، و«القضاءَ على منابع التطرّف الديني» (وبَصَمْنا على ذلك أيضًا دون أن نطالب بالقضاء على منابع الاحتلال والاستعمار ـ لا سمح اللّه ـ لأنّ هذا أمرٌ غير داخلي!).

(التتمة ص ٩٦)

سماح إدريس

تتمة الافتتاحية ص ١

اعتذار

الأسوأ من الشعور بالإهانة، وبأنّنا غيرُ قادرين على تخطّي الخطوط الأميركية الحمراء في الإسكندرية، هو شعورُنا بأنّنا متورّطون في هذا «الإصلاح.» أَلَمْ نَقْبل الدعوة؟ ألَمْ نَجْلس في الدرجة الأولى مع «الأشخاص المهمين جداً»؟ ألم ننزل في أجمل الفنادق... الذي يَحْمل اسمَ فلسطين أيضاً؟ ولنعترفْ: أَلَسْنا أيضاً مع ٩٠٪ ممّا جاء في الوثيقة لجهة إلغاء الرقابة وقوانين الطوارئ والفساد، وإرساء الإصلاح التشريعي والدستوري والتعليمي، وتحرير الصحافة ووسائل الإعلام من الهيمنة الحكومية، وتشجيعِ قيم المساواة والقبولِ بالآخر، وتحريرِ ثقافة المرأة... والحفاظِ على اللغة العربية؟

نعم! ولكنّ الـ ١٠٪ الغائبة، بل المغيَّبة، هي لبُّ الموضوع. إذ لا إصلاح حقيقيًا، يا أعزّائي، بوجود الاحتلال الإسرائيلي والأميركي، والهيمنة الاقتصادية والأجنبية، وتسلُّط الشركات الكبرى، والفساد المدعوم استعماريًا، والقمع المسلَّح أميركيًا. ولا إصلاح داخليًا حقيقيًا بوجود مئات آلاف الفلسطينيين اللاجئين في لبنان وسوريا والأردن... ولا إصلاح داخليًا حقيقيًا بترك المقاومة في فلسطين والعراق ولبنان وحدها دون نصير.

تقولون إنّ خطابنا خطابٌ قديم، ويريد أن يُلغي الإصلاح الداخلي بدعوى محاربة الاستعمار وإسرائيل؟

لا يا سادة. نحن نريد الأمريْن معًا. بل الحقّ أنّ الفصل بينهما ـ كما فعلتم أنتم ـ هو الخطاب القديم... مقلوبًا هذه المرة: ففي حين كان رجالُ الأنظمة (وبعضُهم مايزالون) يُلغون الإصلاحَ الداخلي بحجّة المعركة لتحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل، ها هم رجال الأنظمة اليوم (ومعهم بعضُ المثقفين!) يُلْغون المعركةَ القومية والوطنية بحجّة الإصلاح الداخلي.

وأيّ إصلاح؟

إصلاح لا يَهْدف إلاّ إلى الإبقاء على الرؤساء والملوك والأمراء في كراسيهم، بل على قلوبنا، وإلى توريث هذه الكراسي إلى أبنائهم البررة. ولذلك نسلِّم أسلحتَنا الدفاعية، ونخصخص مرافقَنا لصالح الاستثمارات الأجنبية والحيتان الكبيرة، ونَفْتح أجواءنا ومياهَنا الإقليمية ليضربوا العراق، ونَحْلق رؤوسَنا قبل أن يَحْلقها لنا الأميركان (كما ناشَدَنا الرئيسُ اليمني)، ونعدِّل في برامجنا التعليمية... في حين نُبقي سجونَنا مفتوحةً لـ«الإرهابيين» والمُصْلحين والناشطين السياسيين، ونزيد الفقراءَ فقراً، ونزداد فحشًا وبذخًا، بل نَرْكب موجةَ «الانفتاح على العولمة» لنضاعف من تكديس جيوبنا بالأموال المنهوبة.

بعد ذلك لم أجد بدًا من توجيه هذه الرسالة المفتوحة إلى مضيفيَّ الكرام في الإسكندرية:

أعزائي المُشْرفين على مؤتمر الإسكندرية للإصلاح الداخلي،

تحية طيبة وبعد،

فإنّي آسف للجهود وللمصاريف التي كبّدتُكم إياها. وأعتذر، وإنْ متأخِّراً، عن الشَّغَب الذي أَثَرْتُه في الإسكندرية مع عبد اللّه ونبيل وآخرين. كلُّ إصلاحٍ وأنتم بألف خير. والسلام.

سماح إدريس

بيروت